# خاتمة

عاينَتْ هذه الدراسة نظرية التفسير القرآني انطلاقاً من أفق العصر وأسئلته، وحاولت أن تتفهَّم السياق العام الذي تجلَّت فيه، وتوقَّفت بالتحليل والنقد عند اتجاهين اثنين من اتجاهات التفسير المعاصرة هما: الاتجاه البلاغي الأسلوبي، والاتجاه التأويلي باعتبارهما اتجاهين متمايزين من حيث الرؤية وآليات القراءة والتفسير، على الرغم من انتسابهما إلى المجال اللغويِّ. وبقَدْرِ ما كان الاتجاه الأول حريصاً على تطوير نظرية التفسير، وإرهاف الإحساس بمفهوم الإعجاز اللغويِّ، والإفادة من معارف العصر ومعطياته، كان الاتجاه الآخر يمارس نزعةً انتقاديةً فجة تنطلق من الشك وتؤول إليه، وتوظّف قواعد النقد التاريخي التي تم تطبيقها على الكتب المقدّسة في سياق الثقافة الغربية، فضلاً عن الإفراط في التذرع بالمعارف والمنهجيات التي أدّت إلى الإسراف في التنظير وضحالة الجهود في التطبيق، فكان ملحوظاً جدّاً أنَّ هناك فرقاً جوهرياً بين الاتجاهين أفضى إلى تقبُّلِ الثقافة العربية المعاصرة لجهود الاتجاه الأول، والنظر إليها على أنّها امتدادٌ لجهود أساطين الفكر اللغوي الذين بحثوا في نظرية الإعجاز، وقدَّموا جهوداً صادقةً في سبيل تنوير الروح الإنسانية بنور القرآن، في حين وقفت موقفاً حذراً من جهود الاتجاه التأويلي، ونظرت إليه بعين الرِّيبة بسبب نزعته الانتقادية الفجة، وإسرافه في زعزعة الأساسات الروحية للأمة، ونزوعه الحادّ نحو تقويض أركان القراءة الإيمانية للقرآن، هذه القراءة التي انفتحت عليها الروح المسلمة عبر مسيرتها التاريخية الطويلة، وكانت تُقدِّمُ لها الهداية والسكينة والسّلوى، وتفتح عَيْنَ بصيرتها على المغزى العميق للوجود،وتنهض بها نحو أفقٍ أخرويٍّ خلّاب يستبدّ بأشواق الروح الإنسانية، ويضيء أعماقها بنور القرآن، ويجعلها تندفع

بأقصى طاقاتها نحو إعمار الكون، ونَشْرِ أنوار المعارف، والعروج بالبشرية نحو أفقها الروحيّ الصحيح.

لقد كشفت الدراسة عن الجهد التأسيسي الشاقِّ الذي بذله الشيخ محمد عبده، وحاولت أن تُبَدِّدَ غاشية الاتهام التي لحقت بجهود هذا الشيخ في تحديث نظرية التفسير القرآني وتطويرها، وأن تُقَدِّمَ تحليلاً نقدياً لبعض المؤاخذات والأخطاء التي اكتنفت جهوده في هذا السياق، وبيّنت أنَّ ضَغْطَ العصر الحديث، وقلق العقل الإنساني وشكوكه، والفجوة الحضارية الهائلة بين الشرق والغرب، قد أسهمت مجتمعة في هيمنة الرؤية العقلية لدى محمد عبده، ودفعته للبحث عن لحظة العقلانية الصِّرفة في الثقافة العربية الإسلامية التي تمثَّلت في تراث المعتزلة الفكري، وما نهضت عليه نظريتهم في التفسير من تقديم علم الدِّراية على علم الرواية، وتحكيم العقل في كلِّ ما من شأنه أن يصادم الفكر الإنساني كالخوارق والغيبيات، الأمر الذي دفعه إلى بعض المزالق الفكرية التي أنكرها عليه معاصروه، بَيْدَ أن هذا كله لا يقلِّلُ البتة من جهوده الحثيثة في استنقاذ نظرية التفسير، والانخراط في معالجة المشكلات المستجدة ضمن الإحساس بضَغْطِ الواقع وضرورة تقديم الحلول والأجوبة المناسبة لمقتضى الحال.

كان محمد عبده مصلحاً اجتماعياً يتحمّل أعباء الإصلاح فضلاً عما اضطلع به من أعباء الإفتاء واقتراح الحلول للمشكلات النابعة من الواقع المضطرب للشرق المتأخر عن ركب الحضارة الإنسانية،وكانت جهوده في تطوير نظرية التفسير القرآني لا تعدو كونها جزءاً من هذه الأعباء الثقيلة، وعلى الرغم ممّا لحق بهذا الشيخ من سوء الفهم من مناوئيه إلا أن ريادته للطلائع الحديثة هي محل إجماع، فعلى يديه تم إرهافُ الذائقة الأدبية، وبجهوده الصادقة تمَّ التعرُّفُ على الناقد الفَذِّ عبد القاهر الجرجاني، أحد أكبر علماء الإعجاز في الثقافة العربية الإسلامية، فاجتمع من هذا كله بوادر الإحساس بتجديد رؤى المفسر المعاصر من خلال الاستثمار الذكي لإمكانات اللغة على وجه الخصوص، لكن هذا لا يعني أن هناك منهجاً مكتملاً تبلور على يدي محمد عبده، فكانت جهوده نقطة الانطلاق نحو أفقٍ جديدٍ في

التفسير يتأسَّسُ على وعيٍ مكتملٍ بالمنهج ونظرية القراءة والتفسير.

لقد مهدّت جهود محمد عبده وجرأته العقلية لبزوغ نجم دارسٍ مُنَظّمِ التفكير هو أمين الخولي. وقد كشفت الدراسة عن الفكرة الجوهرية في تفكيرِ الخولي وهي أنَّ القرآن الكريم هو النصُّ الأدبيُّ الأعلى بين نصوص الثقافة العربية، وأن مهمّة المفسّر الحديث هي الكشف عن خصائص السموِّ الأدبي الفريد في القرآن الكريم. وقد أفضت هذه الفكرة الجازمة لدى الخولي إلى القول بأن الإعجاز اللغويَّ هو مناط الخطاب وحُجّة الإقناع للعقل الإنساني، وما عدا ذلك من مظاهر الإعجاز فهي تابعةٌ لهذا الوجه الإعجازي المتفرد، وهي في أحسن حالاتها لا تعدو كونها تأكيداً للطاقة اللغوية المذهلة للقرآن الكريم.

كان أمين الخولي واعياً بإيقاع عصره، مدركاً لأهمية صياغة منهجٍ متكاملٍ للقراءة ينطلق من اللغة ويعود إليها، ويوظّف الخبرة العميقة بالسياق التداولي للألفاظ، ويرصد بذكاءٍ ملحوظٍ التطوّر التاريخي للدلالات القرآنية، ومن هنا كان اقتراحه لمنهجية «التفسير الموضوعي» للقرآن الكريم باعتبارها المنهجية الملائمة للوصول إلى المعنى المقصود، وكان هذا الاقتراح اعترافاً ضمنياً بقصور آلة المفسِّر المعاصر عن دراسة القرآن انطلاقاً من بنيته المستقرة في التاريخ، ويشير من ناحية أخرى إلى الإفادة من علم «أصول الفقه» الذي كان يستنبط قواعده، ويؤسِّس منهجياته من خلال منظورٍ قريب جداً من منظور التفسير الموضوعيِّ الذي اقترحه الخولي، وقدّم في ضوئه قراءةً أدبيةً لبعض الموضوعات القرآنية كما سبق بيانه، كشف فيها عن التدبير النفسي والاجتماعي في القرآن للحياة الإنسانية، مؤكدّاً أن هذه السبيل هي وحدها الكفيلة بتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية وتأثيرها في الحياة.

لقد جوبهت مدرسة التفسير الأدبي التي أرسى دعائمها أمين الخولي بعاصفةٍ من المعارضة والاحتجاج أدّت إلى وأد هذا المنهج ومحاصرة أتباعه، وعلى الرغم من الحصار الذي فرض على هذه المدرسة إلا أن مجموعةً قليلةً جداً من تلاميذ الخولي آثرت السير في هذه الطريق الشائكة، وقد سبقت الإشارة إلى السجال الحادّ الذي أثارته أطروحة محمد أحمد خلف الله «الفنِّ

القصصي في القرآن الكريم»، وكيف أن ذلك أفضى إلى حرمان الخولي من الإشراف على الدراسات القرآنية، وأن تلميذين اثنين فقط من جماعة الأمناء هما اللذان واصلا السير في طريق التفسير الأدبي للقرآن هما: شكري عيّاد، وعائشة عبد الرحمن.

كانت جهود عائشة عبد الرحمن لا تعدو كونها صياغةً معاصرةً لبعض مصطلحات الموروث البلاغي، وظلّت قراءتها الأدبية للقرآن تفتقر إلى الذكاء اللماح واللحظة الإبداعية، وعلى الرغم من قربها الشديد من أمين الخولي إلا أن هناك فرقاً ملحوظاً في الروح النقدية لكلتا القراءتين، فقد كان الخولي محتدم الروح نزاعاً بعقله وذوقه إلى اجتراح المعنى المبتكر الدال على أصالته الذاتية وثراء إحساسه بأدبية اللغة القرآنية، وهو الشيء الذي أخلّت به قراءة عائشة عبد الرحمن، فجاءت معالجتها الأدبية في أغلب الأحيان بسيطةً سطحيةً غير قادرةٍ على النفاذِ إلى أغوار المعنى القرآني.

أما شكري عيّاد فقد كان أكثر تمثلاً للمنهج الأدبي في التفسير، وأغزر اطلاعاً على النظرية الأدبية المعاصرة وجهود المستشرقين في معالجة بعض قضايا التفسير، فجاءت قراءته الموسومة بـــِ «يوم الدين والحساب» أكثر دلالةً على الإمكانات التي يمكن أن يقدّمها المنهج الأدبي في التفسير، وتأسّست على حسٍّ أدبيٍّ أصيلٍ وخبرةٍ ملموسة بنظرية التفسير في الثقافة العربية الإسلامية، فأضفى ذلك على قراءته قدراً غير قليلٍ من الجاذبية والأصالة الذاتية، فضلاً عمّا تمتّع به من روحٍ نقديةٍ جمحت به إلى تطوير رؤى أستاذه أمين الخولي، وتقديم قراءة ذكيةٍ كانت بشارةً بميلاد دارسٍ متميّزٍ في حقل الدراسات القرآنية، لكن الظروف الصعبة التي أحدقت بمدرسة التفسير الأدبي أدّت بشكري عيّاد إلى الانسحاب المبكّر من هذا الحقل المتميز، والانخراط في قضايا النقد الأدبي والأسلوبية والرواية المعاصرة، فخسرت الدراسات القرآنية بانسحابه واحداً من كبار النقاد المعاصرين، واختفت شمس الدراسة الأدبية للقرآن وراء غيومٍ كثيفةٍ من الاتهام والمعارضة والاحتجاج.

احتاجت الدراسة الأدبية للقرآن إلى زمنٍ ليس بالقصير للانطلاق ثانية

نحو أفقٍ جديد، فبعد مُضيِّ أكثر من ثلاثين عاماً تبلور اتجاه جديدٌ في الثقافة العربية المعاصرة هو الاتجاه التأويلي في القراءة والتفسير، وهو اتجاه يدين في جوهر مقولاته للثقافة الغربية التي طوَّرت كثيراً من قواعد النقد التاريخي لقراءة كتبها المقدسة: العهدين القديم والجديد، فظهرت نزعة انتقادية في الثقافة العربية المعاصرة عاينت القرآن الكريم بوَصفهِ نصّاً لغوياً تشكّل بفعل الثقافة ونحّت جانباً مفهوم القداسة، وأسرفت في التنظير على حساب التطبيق.

وفي هذا السياق توقفت الدراسة عند جهود اثنين من أقطاب الاتجاه التأويلي هما: محمد أركون، ونصر حامد أبو زيد، حيث كشفت عن قصور الآلة التفسيرية لدى أركون على الرغم من غزارة المعارف التي ازدهى بها وهو يقترب من النص القرآني، فقدّم قراءة متواضعةً تستمدّ كثيراً من آراء المستشرقين وتُفْرِطُ في الادّعاء والتعالي، وتزدهي بإنجازٍ قراءةٍ شكّية تُقَوِّضُ المعنى النوراني للقرآن، وتحيل إلى عدميةٍ لا تعترف بالمعنى أو الحقيقة على الإطلاق.

كان نصر حامد أبو زيد أكثر وعياً بمشكلات نظرية التفسير، وأكثر خبرةً بهذه النظرية كما تبلورت في الثقافة العربية الإسلامية، وكانت عقليته مُشْرَعةً على تراثٍ نقديٍّ غزيرٍ نشأ بفعل السجال الحادِّ بين الأشاعرة والمعتزلة، فضلاً عمّا أتيح له من الاطلاع على نظرية التأويل «الهيرمنيوطيقا» في سياقها الغربي، فاجتمع من ذلك كلّه تراثات وأنساقٌ جعلَتْ تحديد هويّته من الصعوبة بمكان، فهو حريصٌ على تقديم نفسه امتداداً لمدرسة التفسير الأدبي التي تزعمها أمين الخولي، وهو من ناحية أخرى يمارس قراءة انتقادية قاسية للنص القرآني، ويقدِّم مفهوماً للنصِّ لا عهد للثقافة العربية به، وهو من جهةٍ ثالثةٍ يوظف ثقافته الماركسية في ممارسته النقدية، فضلاً عمّا اتّسمت به دراساته من هجومٍ كاسحٍ على معاقل الفكر الإسلامي المعاصر، ممّا جعل منه دارساً إشكالياً يسعى إلى إثارة المشكلات ويعجز عن تقديم الحلول، ويقف عند تخوم النظرية ولا يتجاوز ذلك إلى ممارسةٍ تطبيقيةٍ تكشف عن إمكاناته الحقيقية في تطوير نظرية التفسير القرآني.

ستبقى هذه الدراسة مفتوحة على آفاق القراءات المعاصرة للقرآن، فهناك جهودٌ لم يتيسّر الوقوف عندها ولا بدّ من استكمالها بغية تقديم صورةٍ أكثر اكتمالاً لنظرية التفسير المعاصرة، وفي هذا السياق لا بدّ من الإشارة إلى ضرورة قراءة جهود محمد أحمد خلف الله وعفَّت الشرقاوي وحسن حنفي ومحمد عابد الجابري وغيرهم من المشتغلين بالدراسات القرآنية، بإزاء هذه الجهود هناك قراءات يلوح عليها أمارات الطيش والنّزَقِ الفكري، وتُفْرِط في ادّعاء المنهجية، لكنّها عند التفحص والنقد لا ترقى إلى مستوى القراءات الجادّة، فكان إهمالها والإعراض عنها هو الاستحقاق الوحيد لها، فقد تسوّر على هذه المرتبة الجمّ الغفير من الدارسين الذين يقتنصون الشهرة الزائفة من خلال التجديف واجتراح الآراء الفطيرة السطحيّة في تفسير كثيرٍ من آيات كتاب الله المجيد.

سيبقى هذا القرآن العظيم سراجاً وهّاجاً يضيء ظلمات الوجود، وقمراً منيراً ينير عتمات النفس الإنسانية، وسيظل فوق طاقة الأفواه الصغيرة التي تريد إطفاء نور الله، وتعطيل إشارات السماء، وسيبقى أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته، ورحم الله ذلك الصوفيَّ الغريب حين قال: «انصرف أهل الوِرْدِ حين بلغوه، وانصرف أهل الجزء من القرآن حين درسوه، ولم ينصرف أهلي فكيف ينصرفون؟».

وكان سراجُ الوصلِ أزهَرَ بيننا فهبّت به ريحٌ من الهجر فانطفا